

م/المثقف: والمصطلحات المتداخلة معه

المثقف لغة: Intellectual

أسم مفعول من نَقَفَ بمعنى حَذَقَ، نَقَفَ الشيء نَقْفًا وثَقَافًا وثَقُوفَةً: حَذَقَهُ، ورجل نَقِيفٌ ونُقُفٌ ونُقُفٌ: حاذق فهم.

المثقف اصطلاحاً:

أنَّ مصطلح المثقف ما زالت الضبابية تكتنف مجاله الفكري والنظري ومضمونه المعرفي والاجتماعي، وما زال يعد قضية خلافية لم يتم تحديد مضمونها، وعلى من تطلق، ومن يمكن اعتباره مثقفاً! ربما تتبادر الى الذهن لوحة تعني: أنه ذلك الانسان المتعلم، الباحث، الكاتب، المفكر، الفقيه، الفيلسوف، العالم، الشاعر، الرسام، الاديب الخ.

لم يخلُ مجتمعٌ من مثقيه بأدوارهم وتسمياتهم المختلفة (السحرة، العرفان، رجال الدين، الفنانون، الاديباء والعلماء)، ولكن مفهوم المثقف لم يرَ النور الا حديثاً، فهو من المفاهيم الحديثة النشأة التي يصعب الجزم بوجودها في الثقافة العربية.

"إنَّ لفظ (مثقف) في اللغة العربية لا يعدو أن يكون في الحقيقة مجرد صنعة نحوية قياسية: اسم مفعول من فعل، ثقف، ولم ترد هذه الصيغة في النصوص العربية إلا نادراً جداً ... وبالتالي فهو لا يشكل مرجعية"، وإنَّ مفهوم المثقف قد نقل الى العربية من الثقافة الأوروبية عبر ترجمة ناجحة، ولكنه لم تتم تبيئته بالصورة التي تمنحه مرجعية محددة في فضاءنا الثقافي، فبقى (غريباً) على رغم انتشاره الواسع، وهكذا بقي الانسان العربي الذي يوصف بأنه (مثقف) لا يتعرف الى نفسه بوضوح، لا يعرف لماذا يوصف بذلك الوصف ولا يدري هل يقبله، أو لا يقبله.

إنَّ تاريخ استعمال، أو انتشار هذه المقولة في الخطاب العربي، قد لا يتجاوز نصف قرن من الزمان، وهي بصيغتها المعاصرة: (المثقفون)، كلمة مولدة، إذ هي ترجمة للكلمة الفرنسية intellectual التي يرجع تاريخ استعمالها كاسم الى ازيد من قرن، فلفظ intellectual مشتق من intellect الذي معناه العقل، أو الفكر، وعندما يستعمل وصفاً لشيء فهو يدل على انتماء، أو ارتباط هذا الشيء بالعقل كملكة للمعرفة، أو بالروح، أما عندما يستعمل اسماً فهو يحيل الى

الشخص الذي لديه ميل قوي الى شؤون الفكر، أو الى شؤون الروح، الشخص الذي تطغى لديه (الحياة الروحية، أو الفكرية).

أما اللفظ العربي: (متقف)، الذي وضع ترجمة لـ intellectual فهو لا يحيل الى الفكر أو الروح، بل الى لفظ (الثقافة) الذي هو ترجمة لكلمة culture الفرنسية التي تدل في معناها الحقيقي الأصلي على (فلاحة الأرض)، أما في معناها المجازي فتدل أولاً على تنمية بعض الملكات العقلية بواسطة تداريب وممارسات، كما تدل ثانياً على مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن من تنمية ملكة النقد والذوق والحكم، والمتقف بهذا المعنى سيكون هو من اكتسب التدريب والتعلم جملة المعارف التي تنمي فيه هذه الملكة.

اعتمد المتقفون العرب بشكل مباشر وكلي، على كتابات رواد علم الاجتماع والفلاسفة الأوروبيين، وتحديداً كارل ماركس، وانطونيو غرامشي، وجان بول سارتر، فصارت تعريفات المتقفين العرب لأنفسهم، هي تعريفات أولئك المتقفين الأوروبيين، بعد أن نقلوها الى الحقل الثقافي العربي، لهذا نجد هناك تشابهاً كبيراً عند المفكرين الغربيين والمفكرين العرب في تعريف المتقف، ونجد هنالك تسميات متداخلة ومتشعبة مع مصطلح المتقف، ومن أبرز هذه التسميات: العالم، المفكر والداعية.

أولاً: العالم:

العالم لا يكون عالماً حتى يكون مع علمه عارفاً، والعارف هو الذي يمكنه أن يوفق بين الشرع وبين ما ينفع الناس في كل زمان بحسبه، ولا يسمى عالماً على الحقيقة حتى يظهر أثر علمه على قومه، ولا يظهر ذلك الأثر إلا بعد علمه بأحوالهم وإدراكه لحاجاتهم.

للعالم مفهومان مختلفان كل منهما له وجه حضاري متميز عن الآخر:

الأول: العالم في الحضارة الإسلامية الذي يقصد به إذا أطلق عالم، علماء العالم بالدين الإسلامي، وقد يوصف بالعالم الشرعي، ولمعرفة موقع العالم الشرعي بالنسبة للقب متقف، يتم من خلال تحديد صورتين برز فيها العالم الشرعي تاريخاً:

أولهما: الصورة التي يتفقه فيها العالم الشرعي في تعاليم الدين بشمولها، ثم يسعى لإصلاح الواقع البشري فيها في جوانبه الايمانية، العبادية، الخلقية والتشريعية، فهو متفقه في الدين، متصور للواقع، يسعى لتقويم الواقع نحو الصورة التي تتحقق بها مصالح العباد ورضى خالقهم، العالم الشرعي بهذه

الصورة (متقف) حتى وإن لم يتسم بذلك، أي: أنه مستوفٍ العناصر الأساسية لشخصية المتقف صنعة فكرية، وتكيفاً شخصياً، وواقعية اجتماعية ونقدية.

ثانيهما: الصورة التي آل إليها حال كثير من علماء الامة في عصور الضعف، سواء في انحصار العالم في فن من الفنون منقطعاً عن فنون العلم الشرعي الأخرى مستغرقاً بدقائق فنه وخلافاته الموروثة تاريخياً، ومنعزلاً عن واقع الحياة التي تعيشها امته، أو مجتمعه انعزلاً فكرياً، هذا النوع من العلماء لا يصدق عليه وصف متقف، لافتقاده عامة العناصر الأساسية.

الثاني: العالم في الحضارة الغربية المعاصرة، ويراد به المتخصص بالعلوم التجريبية، أو التقنية، يتمثل هذا الأساس في أنّ مفكري الغرب في العصور الحديثة بعد أن تحرروا من هيمنة الفكر الكنسي الذي كان يحصر "العلم" في دائرة كتبه المقدسة بشروحها المستمدة من المعارف اليونانية القديمة، ومن هيمنة الفكر الفلسفي الميتافيزيقي الذي عماده تخيلات ذهنية عن الوجود والقيم ونحوها، سعوا لصياغة نموذج جديد للعلم له موضوعاته ومنهجه، وكان الموضوع هو عالم المادة الذي اهملته الكنيسة والفلسفة معاً، وكان المنهج هو المنهج الاستقرائي القائم على التجربة الحسية والملاحظة المقترنة بالنظر العقلي.

ثانياً: المفكر:

كل مفكر على الاطلاق هو حصيلة أثرين، أو عاملين فاعلين فيه: الانطباعات والمؤثرات والمحن والتحديات والتجارب الحادة الخصوصية التي حفزته وتحديثه من ماضيه وحاضره، وعبقريته وشخصيته المستقلتان الفذتان اللتان انفعلتا بهذه المؤثرات والتجارب واستجابتا لها بشكل شخصي خلاق فريد، والمفكر يطلق اليوم بإطلاقين:

الأول: على المختصين بالدراسات الإنسانية كالاقتصاد، القانون، علم النفس، السياسة، الاقتصاد والتاريخ والفلسفة التي لم تصل الى مستوى العلوم التجريبية في علميتها.

الثاني: يوصف به المعنيون بالقضايا العامة للمجتمع، أو الامة، فالمفكر هنا مقابل للفقيه الإسلامي، فالمفكر مختص بالقضايا العامة سواء كانت إنسانية، أو حضارية، أو دراسية في المذاهب والمناهج الفكرية، وعلى هذا فالمفكر في كلا الاطلاقين معني بالثقافة مشتغل في قضاياها، لكن استحقاقه وصف (متقف) يلزم لذلك ان يكون في صنعته الفكرية متجاوزاً حدود الاستهلاك والتقاليد، وأن يكون في سمته الشخصية متوافقاً مع متطلبات معرفته، وأن يظل متماساً

مع مجتمعه، وواقع أمته، مستجيباً لما تقرضه عليه حاجاتها القائمة، بالنقد والإصلاح، فهذا (متقف) وإن لم يوصف بذلك.

ثالثاً: الداعية:

الداعي في اللغة هو القائم بالدعوة، واسم فاعل من دعا يدعو، وتأتي الهاء في آخره للمبالغة، فيقال عن من عُرف بالدعوة (داعية)، أما اصطلاحاً فالداعي "فهو المبلغ للسلام، والمعلم له، والساعي الى تطبيقه"، مجال الدعوة الذي يعمل فيه الدعاة مجال ثقافي بامتياز لكنّ هؤلاء الدعاة متفاوتون في مدى استيفائهم لسمات المتقف النموذج، فمن الدعاة من لا يتجاوز جهده حفظاً لبعض النصوص وتذكيراً بها (صاحبه ليس متقف)، ومنهم علماء شرعيون متمكنون في تخصصاتهم، متفاعلون مع واقع مجتمعاتهم بالنقد والاجتهاد والإصلاح فهم بذلك متقفون.